من تاريخ المسرح السوري

ابو خليل القبّاني

بقلم : نجاح سمان

إذا قدر لك في يوم من الأيام أن تحتك بالجو الفني في سوريا ، فأنك لابد سامع باسم أبي خليل القباني مع عبارات الاعجاب . وإذا سألت من هو أبو خليل هذا ، وجدت أجوبة مستفيضة يبين بعضها مآثره ويثني جلها عليه، فهو قد أحيا الموسيقى ونشر فن السماح ، وله في الغناء باع طويل وهو شاعر وممثل وكاتب مسرحي ...

كذلك ما من معمر في دمشق الا عارف به خيراً او شراً ، فالرجل ذائع الصيت وقد تردد اسمه على كل لسان في عصره. ويرتكز هذا الصيت الى عمل أبي خليل المسرحي ومحاولته تأسيس مسرح في دمشق في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، فلننظر في نواحي هذا العمل لنستطيع تقدير عبقرية الرجل ومدى رقي مسرحه .

يذكر الجميع ان مسرح أبي خليل في دمشق لم يكن مسخاً بل كان واسعاً فسيحاً تزيد جبهته على خمسة وعشرين متراً مما ساعده على اظهار المشاهد الكبيرة . ولكي يستطيع الحضور مشاهدة المسرح بجلاء ، جعل صالته متدرجة ، وكان النظام عنصراً هاماً في مسرحه ، فهو المؤلف والمخرج والرأس المدبر ، تتفرع عنه فروع لكل منها اختصاصه ، فهناك الممثلون ، والمختصون بنصب المسرح وتنفيذ المشاهد والمختصون بتفصيل الثياب الملائمة للأشخاص وفق ادوارهم وراقصو السماح والموسيقيون والمنشدون والاداريون لضبط مختلف الشؤون ولاسيما ضبط الصادر والوارد .

ان مثل هذا النظام في عمل أبي خليل المبكر لجدير بالاعجاب والتقدير . كذلك كان أبو خليل يعنى باصطفاء العاملين معه ، فعلى الممثلين ان يجتازوا فحصاً يثبتون فيه أهليتهم في فهم المعاني والاداء المسرحي . وأحب ان أشير الى كثرة العاملين في مسرحه ، فمن المؤكد أنهم تجاوزوا الخمسين أو اكثر من ذلك ، وقد أحبوه جميعاً وعملوا معه باخلاص ،وعندما غادر دمشق الى مصر رافقه عدد كبير منهم.

وتمثيليات أبي خليل كثيرة ، ضاع قسم منها ، وطبع قسم آخر ، ولا يزال بعضها مخطوطاً ، وأشهر تمثيلياته « الامير محمود نجل شاه العجم » و « ناكر الجميل » و «ملتقى الخليفتين» و « عنترة » و « الكوكبان » و « أسد الشرى » و « السلطان حسن » و « لوسيا وانس الجليس » . وأخيراً تمثيلية « كسرى أنو شروان » في اربعة فصول تظهر كلها عدل كسرى فهو ينتقم من ابنه ويعاقبه لعدوانه على بعض الناس ، وفي الفصل الأخير ينتقم من الأفعى التي افترست صغار البازي ، وقد أظهر الأفعى على المسرح كما أظهر البازي اللائذ بعدل الملك .

وقد استطاع أبو خليل في مجموعة ما كتبه ان يدفع بفن المسرحية شوطاً الى الأمام . كان المسرح العربي في بيروت يعتمد على الروايات المترجمة ، وممثل تلك الفترة الأستاذ الكبير مارون النقاش ، وقد حافظت تلك الروايات على طابعها الغربي رغم جهود اظهارها في ثوب محلي ، أما أبو خليل فقد كتبها بنفسه فاكتسبت مسرحياته بذلك عدداً من الميزات الهامة اولها أنه اختار مواضيع من النوع الذي يجلب الناس اليه لأنه يتصل بحياتهم ولهوهم وجدهم، ولا سيما مواضيعه التي اختارها من النوع التاريخي القصصي كتلك التي كان يسردها القصاصون كل ليلة في مقاهي دمشق ، فلماذا لا يقبل الناس عليه ما داموا سيستبدلون السماع بالمشاهد الحية ؟ وقد عرف ابو خليل كيف يضمن مواضيعه المتعة والبهجة من جهة والنصح من جهة أخرى، حتى شغل دمشق وتردد اسمه على كل شفة فيها .

وكان أبو خليل متمكناً من اللغة العربية ، فجاءت تمثيلياته أقوى من سابقاتها لغة وحواراً، كما ان آثار الترجمة في التمثيليات السابقة أضعف من قوة لغتها ويتفق أسلوبه مع سابقيه في العناية بالسجع ، وايراد الشعر مع النثر .وقد فاق أبو خليل سابقيه في إظهار النص شعره ونثره كلا واحداً كقوله من تمثيلية الأمير محمود : الملك: بزغت امارة الفرج ، وانجاب غيم الحرج ، وظهر أنه كليم هواه ، وأسير وجده وجواه . ممن اعتراك يا ولدي هذا الغرام ؟ .

محمود: آه، هذا الغرام، بذات حسن تنجلي كالشمس وسط الحمل

لها دموع قد جرت مثل الفرات السلسل
يلوم فيها عاذلي أين الشجي من الخلي

٤٩

الملك : ومن هذه العشيقة يا ولدي ؟

محمود : آه ، هي التي أذابت كبدي

ذات القوام السمهري أخت الغزال

من أخجلت با لخفر ضوء الهلال

كادت بسهم الحور واللطف تمحو أثري

فاعذروني ، ضاع فكري ، من الجوى والسهر

الملك : أنت مغرور يا بني ، فاوضح عشيقتك لدي ، لأبلغك مشتهاك ، ولو كان في السماك

محمود : آه يا أبي ، السماك اقرب من طلبي ، لأني عشقت صورة ... »

هذا المثال البسيط يؤكد قوة لغة أبي خليل وبراعته في ايراد الشعر نظماً أو تضميناً ، كذلك يظهر براعة حواره وتوفر عنصر التشويق : ادرك الملك ان ابنه عاشق وهذا سبب غمه ، فأراد أن يعرف المعشوقة ليبلغ ابنه مناه ، فلا يجد من ابنه الا جواباً يؤكد تعلقه بها ، وأخيراً تحل المشكلة فابنه يعشق صورة . واذا بالحل مشكلة جديدة تتطلب حلا .

إننا لا نلمح مثل ذلك في التمثيليات السابقة .

كذلك فان موضوع أبي خليل اكثر تماسكاً ، وأحسن سياقاً ، وأقوى عقدة ، فمحمود نجل شاه العجم أحب صورة لذلك لم يستطع أبوه مع جبروته أن يحقق له مناه ، فقرر محمود أن يجوب البلاد بحثاً عن محبوبته ويقينه أنها موجودة والا لما خفق قلبه حبا بها . وما زال يجوب البلاد حتى وصل الى الهند فتسلل الى حديقة الملك ، وكان قادماً على حرب مع ملك العجم وهو غير قادر على مجابهة ذاك الملك الجبار . عثر الملك على محمود في حديقة داره فظنه جاسوساً وهم بقتله ولكن محمود أوضح له أنه يستطيع وقايته شر الحرب وأفهمه أنه هو ابن ملك العجم ، فسر ملك الهند لذلك وساعده في البحث عن صاحبة الصورة بنشرها على باب حمام أعد خصيصاً للغرباء ليؤمه أناس من شتى أقطار الأرض ، وصدف أن جاء رجل الى الحمام ولما رأى الصورة صاح « زهر الرياض واشوقاه » فأخذه الرجال الى الملك وبعد أخذ ورد عرف محمود أن زهر الرياض هي ابنة ملك الصين ، هذه مشكلة جديدة فبين الهند والصين سفر عام ، ولكن خادم الملك السحري — سحاب — سيذلل تلك الصعوبة ، ففي طرفة عين كان مع محمود في بلاد الصين ، وهناك وجدا ان الأميرة زهر الرياض قد استولى عليها شيطان ، ولكن الأمل لم يخب لأن محمود استطاع بمساعدة سحاب ان ينجيها ثم تزوجها وعمت الأفراح .

ها نحن نرى أن سياق التمثيلية عند أبي خليل جيد ، يستدعي كل مشهد الآخر ، ولا تكاد تحل العقدة حتى تتعقد من جديد ، وهذا فن ليس بالقليل سيما وأننا لا يجوز لنا أن نحكم على أبي خليل بما وصل اليه فن المسرحية في عصرنا هذا.

وصفة أخرى تتصف بها مسرحيات أبي خليل وتدل على فهمه العميق لفن المسرحية وتمكنه منه ، هذه الصفة هي وضوح شخصياته ووجود حدود لها لا تتعداها ولا تؤدي ما يتنافى مع طبيعتها . فالحكمة وهي غاية هامة في كافة تمثيلياته يطلقها على لسان أصحابها ، فالعجول يندم على عجلته وكثير الكلام يحذر من زلة اللسان ، ولا نجد مثل هذه الدقة في التمثيليات السابقة. فالاستاذ مارون النقاش في تمثيليته الشهيرة « أبو الحسن المغفل » أو « السليط الحسود » اراد أن يظهر شخصية حسود ولكنه كثيراً ما وضعه في غير موضعه فهو متناقض ، ناقد ومنتقد ، محسن ومسيء ، كما أن المشاهد كثيرة مضطربة .

وهناك ميزة اتصفت بها مسرحياته هي اكثاره من التخاطب فحفظ بذلك منطقية المسرحية واقترب بها من الواقع ، ففي التمثيليات السابقة نجد كثيراً من الأشخاص يتكلمون في سرهم او يحادثون أنفسهم على مسمع من الجمهور والممثلين والمفروض ان الممثلين لا يسمعون من حديثهم شيئاً وهذا غير طبيعي.

إذا استعرضنا تمثيلية « السليط الحسود » السابق ذكرها نجد ثلث حوارها على هذا الشكل بينما تختفي هذه الظاهرة عند أبي خليل الا ما ندر . مثال ذلك همسه لنفسه : ولكن يلزم أن أتستر عن هذا الانسان ، وأظهر له الانقباض ، وأساله من أين يعرف زهر الرياض (مخاطباً محمود) ومن أين يا هذا تعرف زهر الرياض ؟ .

وهذا المثال أحد اثنين فقط في تمثيلية الأمير محمود.

وأخيراً أبدع أبو خليل عندما اخترع الأوبريت وأدخلها على المسرح العربي وهي عبارة عن مشاهد غنائية راقصة ، وعنصر الرقص والغناء أساسي في اكثر تمثيلياته ، أعني رقص السماح مع غناء الموشحات ، فهو يخصص لها مشاهد وينتهز مناسبات ، واليه يعود الفضل في نقل فن السماح الى مصر وقد كان المصريون شغوفين جداً بمشاهدة فرقة السماح ، وقد فعلت الأوبرت في المسرح العربي بعد أبي خليل ولاسيما في مصر ، ولا نزال نلمحها خلال الأفلام المصرية المعاصرة .

دمشق

نجاح سلمان

ليسانس في الآداب